# المقدمة

يضم هذا الكتاب دراسات عن الحضارة الغربية الحديثة والنموذج المعرفى الكامن وراء بعض نظرياتها ومنتجاتها الحضارية. وقد كُتبت بعض الدراسات فى ربع القرن الماضى أثناء تشكل رؤيتى لهذه الحضارة وللنماذج التحليلية التى استخدمتها. ولهذا أعدت كتابتها بما يتفق مع رؤيتى التحليلية بعد أن تشكلت وتبلورت، كما أضفت لها أجزاء من دراسات نشرت من قبل بعد أن أعدت كتابتها اختصارا وتعديلا. والإشكالية الأساسية التى توجد عبر كل الكتاب إشكالية محورية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وهى علاقة الذات بالموضوع والتى تتبدى فى إشكالية علاقة الأفكار بالواقع، والشكل بالمضمون، والكل بالجزء، والخاص بالعام. ويضم ملحق الكتاب عدة دراسات تهدف إلى توضيح هذه الإشكالية وكيفية تجاوزها، كما يضم دراسات خاصة بالنماذج المركبة وضرورة استخدامها فى دراسة الظواهر الإنسانية.

ويتناول الفصل الأول بعض أهم المفاهيم المحورية فى الحضارة الغربية الحديثة مثل «الإنسان الطبيعى» و«الاستنارة» و«العلمانية». أما الفصل الثانى («النموذج المعرفى والحضارى الغربى») فهو محاولة لتجريد النموذج المعرفى والحضارى الغربى وتحديد بعض سماته الأساسية.

ويضم الفصل الثالث («ماكس فيبر والحداثة») ثلاث دراسات فى فكر عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر والهدف منها توضيح منهجه فى دراسة الظواهر الحضارية الحديثة، فهو يستخدم النماذج المركبة متعددة الأبعاد ليفسر ظواهر مثل الرأسمالية والعلمانية، فيبين علاقتهما بالإصلاح الدينى وبالحلولية. وقد حاولت قدر استطاعتى أن أتبنى نفس المنهج، وإن كنت توصلت إلى نتائج مغايرة. وغنى عن القول إن دراسة الظواهر الحضارية المركبة مختلفة عن دراسة الظواهر الطبيعية المادية والظواهر الإنسانية

البسيطة، وأن النتائج التى يصل إليها الدارس هى نتائج فى معظمها احتمالية، ولا يمكن للإنسان أن يطلب منها أكثر من ذلك، بسبب طبيعة الظاهرة موضع الدراسة. وكما قال أرسطو إن من سمات الإنسان المتحضر ألا يتوقع من شىء أكثر مما يمكن لهذا الشىء أن يعطيه.

ولعل من أهم العناصر التى أسهمت فى بلورة رؤيتى للحضارة الغربية صداقتى الفكرية مع المؤرخ الأمريكى كافن رايلى، وهى صداقة بدأت عام ١٩٦٤ حين التقينا فى جامعة رتجرز، وانضممنا إلى حركة اليسار الجديد المناهضة لحرب فيتنام، وحصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٩ وأنهى هو مؤلفه (الذى طبع عدة طبعات) **الغرب والعالم** عام ١٩٧٤ والذى قمت بترجمته بالاشتراك مع الدكتورة هدى حجازى (زوجتى). ولم تنقطع الصلة واستمر الحوار، وما زلت ألتقى به مرة على الأقل كل عام حين أذهب إلى نيويورك، ونتبادل الرسائل والمكالمات التليفونية بشكل منتظم، وكل مرة نكتشف نقط اللقاء والاختلاف. والفصل الرابع من هذا الكتاب («الحضارة الغربية الحديثة: حوار مع مؤرخ أمريكى») هو محاولة لتناول بعض الموضوعات الأساسية فى هذا الحوار، وهو فى ذات الوقت محاولة لإلقاء الضوء على الحضارة الغربية وموقفه منها، كما يبين بعض تحفظاتى على هذه الحضارة.

والفصل الخامس والأخير («النموذج الحضارى الغربى والحياة اليومية») هو محاولة لدراسة بعض تبديات النموذج الحضارى الغربى على مجمل حياة الإنسان، العامة والخاصة، فى الشرق والغرب.

وقد يلاحظ القارئ أحيانا بعض التكرار، وهذا يعود إلى أن استخدام النموذج كأداة تحليلية يختلف عن طريقة السرد الخطى العادى. ففى السرد العادى تتوالى المعلومات والتعليقات وتتجاور، الواحدة تلو الأخرى، كالخط المستقيم، أما التحليل من خلال النموذج فهو دائرى بمعنى أن الدارس الذى يتبنى النموذج المركب أداة تحليلية، يبدأ بدراسة تفاصيل النص وجزئياته ويجرد منها نموذجا تحليليا. وبعد أن ينجز ذلك يعود إلى النص ليحاول تفسيره فى كليته فى ضوء النموذج الذى جرده. وحين ينتقل إلى نص آخر أو ظاهرة أخرى، فإنه يتبع نفس النمط، بمعنى أنه يعود للنموذج وينطلق منه لدراسة النص أو الظاهرة. ومثل هذه الحركة الحلزونية تتطلب إعادة تعريف بعض

المصطلحات وتذكير القارئ ببعض الأطروحات التى يظن المؤلف أنها محورية وذات مقدرة تفسيرية، مما ينتج عنه قدرا من التكرار. ومع هذا لابد وأن أسارع بالقول إن التكرار لم يكن حرفيا، إذ حاولت بقدر الإمكان أن تعاد صياغة المادة المكررة حتى تتلاءم مع السياق الجديد الذى ترد فيه.

وفى الختام أحب أن أتوجه بالشكر لكل من ساعدنى فى إنجاز هذا الكتاب. وأخص بالشكر الأستاذة أمانى عبد الخالق عزت التى حولت أكوام الورق إلى مخطوطة صالحة للنشر، والأستاذة دينا رمضان (المعيدة بجامعة عين شمس)، والأستاذة منى البقلى، والأستاذ محمد الأشول. ولله الحمد من قبل ومن بعد.

**دمنهور ـ القاهرة**

**يناير ٢٠٠٦**

***